قاتل رغم أنفه

أمسك بمسدس لأول مرة في حياتي، أتحسس ملمسه المعدني و لونه الأسود القاتم الذي يجعله يستحق لقب رسول الموت بجدارة..

كان يجلس وراء المكتب (يسري الشناوي) ابن عمي، مرتديًا بذلة غالية الثمن و يبتسم في هدوء..

أعدت المسدس إلي المكتب و نظرت إليه في عينيه مباشرة سائلًا إياه في توتر: للمرة الألف أسألك يا (يسري).. هل فكرت جيدًا في ذلك الأمر الذي عزمت عليه؟

فأجاب في ضجر و قد اختفت ابتسامته:

- وللمرة المليون يا (توفيق) أقول لك.. نفذ ما طلبته منك..

فشعرت بالعرق يغمر جبهتي و أنا أعاود الإمساك بالمسدس، و عادت إلي ابن عمي ابتسامته، وقمت بتركيب كاتم الصوت، وأنا أتذكر ذلك اليوم الأسود الذي زارني فيه ابن عمي بالمصلحة الحكومية التي أعمل بها، ودعاني لتناول الغداء في قصره، كان يملك إرثًا كبيرًا من النقود والعقارات ورثها عن أبيه الذي أهدر حق أبي في ميراثه من جدي، ويوم توزيع التركة أبرز عقودًا مسجلة تثبت أن جدي باع إليه كل ممتلكاته، ولم يترك لأبي سوي شقة العائلة التي مازلت أقيم فيها حتي الآن..

بعد أن تناولت الغداء مع (يسري) قام بطرح فكرته المجنونة؛ أنه يريدني أن أقتله!

أنا أعلم أنه سمج و صاحب دعابات ثقيلة، و لكن الامر مختلف هذه المرة!

حسبته ساعتها مجنونًا و هممت بالانصراف، ولكنه أمسك بيدي واقتادني إلي حجرة المكتب، وأطلعني على العديد من صور الأشعة والفحوصات التي تثبت أنه مصاب بمرض السرطان و أن أيامه في الحياة صارت معدودة..

سألته ساعتها وأنا أرد له أوراقه و صور أشعته :

- و لماذا تريدني أن أقتلك؟ أنت بكل الأحوال ميت!

فأجابني بابتسامته الغير مبررة:

- أريد أن أنهي حياتي في الوقت الذي أريده، لقد عشت حرًا طوال عمري، أشرب ما أريد و آكل ما أريد، أنال أي شيء يخطر على بالي بإشارة فقط من إصبعي، ولا أريد أن أظل حتى يحتم علي الموت قضاءه!

فسألته في ملل:

- و لماذا اخترتني أنا بالذات لهذه المهمة؟

- لأنك تكرهني!

فحملقت فيه اندهاشًا من صراحته ثم قلت له في حرج:

- أنا لا أكرهك لشخصك، و لكن أنت تعلم جيدًا مسألة الميراث و..

فقاطعني بلهجة آمرة:

- توقف عن الكذب يا (توفيق)، ولا تنس أنك تتحدث مع رجل ميت، والكذب على الأموات خطيئة لا تُغتفر!

ثم استطرد واضعًا فمه في أذني كي يوسوس فيها:

- الموضوع سهل للغاية؛ سأعطي جميع الخدم أجازة مفتوحة بدءً من الغد، وسأبقى في القصر وحدي حتي يوم الجمعة القادم، وسأقوم بتجهيز مسدس كاتم للصوت تؤدي به مهمتك، أنا أعزب مثلك يا عزيزي فلا تخشَ شيئًا، وكل ما عليك عقب الخروج من القصر؛ أن تبلغ الشرطة بوفاتي من أي هاتف عمومي حتي لا تتعفن جثتي، و ستحصل نظير تلك الخدمة على خمسمائة ألف جنيه، وهذا شيك مني بالمبلغ!

******

(اضغط علي الزناد يا توفيق)..

هكذا جاءني صوته كي يخرجني من أفكاري، هذا الوغد يتعجل الموت بصورة غريبة والابتسامة لا تفارق شفتيه!

شعرت بقطرات العرق تنهال خلف أذني اليمنى، فرفعت السلاح و سددته ناحية قلبه، كانت يداي ترتعشان والمسدس يهتز في يميني، وألقيت عليه نظرة مشفقة..

هل هذا يعتبر موتًا رحيمًا؟

هل إذا انكشف أمري فسوف أُعَاقَب؟

و إذا نجوت من عقاب الدنيا، فكيف سأهرب من جزاء الآخرة!

و لكني سأنقذه من العذاب والألم، و كل شيء سيتم برضائه، إذن فلا توجد ضحية!

استجمعت شجاعتي، وأوقفت مؤقتًا أنين ضميري الذي حاول إثنائي عن هذه الفعلة، و ضغطت على الزناد لثلاث مرات متواصلة!

******

أبرزت الصحف في الأيام التالية نبأ اختفاء ابن عمي، وتم وصفها بالجريمة الغامضة، فقد اتصل أحد الأشخاص بالشرطة يخبرهم عن جريمة قتل بخصوص رجل الأعمال المعروف (يسري الشناوي)، و لكن الشرطة عند الوصول إلي قصره لم تجد له أثرًا..

اختفى!

ولكن كيف؟

لقد صرعته بثلاث رصاصات في قلبه، و شاهدته وهو ينزف والحياة تغيض من وجهه!

واستُدعيت إلى النيابة لسماع أقوالي بشأن تلك الحادثة، فلم أُزِد حرفًا عن أنه جاء لزيارتي منذ ما يقرب من أسبوع، وأنه قد شعر بدنو الأجل

فأعطاني شيكًا بمبلغ من المال، كتعويض لي عن إرث أبي الذي نهبه والده..

انتهت القضية.. وبقي الجميع في انتظار الغائب، وصرفت الأموال من البنك فاستقلت من العمل و ودعت حياة الضغوط و المديرين الظالمين، و شق عليّ فقط توديع أصدقائي الذين كانوا خير صحبة لي في الحياة و أنشأت مشروعًا خاصًا بي، وتزوجت أيضًا من فتاة جميلة ذات حسب ونسب..

وفي أحد الأيام رن جرس الباب ففتحته لأجد (يسري) واقفًا أمامي يبتسم!

سقطتُ مغشياً عليّ، وعندما أفاقني الجيران كان ذاب كالملح في الماء!

كنت أرى وجهه دائمًا، و جهه صاحب الابتسامة الواسعة والأسنان العاجية..

كنت أراه في وجوه الموظفين، كنت أراه في وجوه جيراني، في وجه زوجتي!

إنه حي، و لكن ماذا يريد مني؟

علمت أنه لا فائدة من المقاومة، فدخلت إلى مصحة نفسية خاصة يديرها طبيب نفسي شهير، بُحتُ له بكل شيء، وبعد نظرة غامضة منه سألني:

- سيد (توفيق) هل أنت واثق مما تقول؟

- بالطبع، أعلم أنه شيء عسير على العقل و لكن..

فقاطعني قائلاً:

- و لكن ابن عمك توفي غارقًا!

فاتسعت عيناي رعبًا و سألته:

- ماذا تقول؟

فأخرج لي من درج مكتبه صحيفة حملت تاريخ الأمس و تبرز خبر العثور علي جثة (يسري الشناوي) غارقة في النيل؟

فألقيت الصحيفة في غضب و صحت بأعلي صوتي:

- مستحيل!

فقام الطبيب بتهدئتي و قال لي:

- ابن عمك توفي غارقًا يا سيد (توفيق)، و كل القصة التي ذكرتها لي من المرجح أنك اختلقتها في خيالك، أو بالأصح في عقلك الباطن، من واقع سجلات عملك بالحكومة؛ يتضح أن لك تاريخًا قصيرًا مع مرض (الفصام)؛ وبشهادة زملائك؛ فإنك تختلق عالمًا وهميًا تعيش فيه، وتصنع أصدقاءً وهميين تبث لهم شكواك، وتأنس بهم، واذا حاول أحدهم تنبيهك إلي أنك تتحدث مع الهواء تتشاجر معه!

فهويت جالسًا على المقعد، و سألته ذاهلًا:

- وزوجتي؟ هل تعلم ذلك؟

فأجابني بابتسامة ساخرة:

- أنت أعزب يا عزيزي، ولا توجد لك زوجة!

- و لكنها أوصلتني إلى هنا بنفسها..

فهز رأسه في أسى قائلًا:

- أنت مريض للغاية، وفي حاجة ماسة للعلاج..

- والمال الذي تركه لي؟

- لا أريد أن أخبرك بحالة ملابسك التي جئت بها إلى هنا، حتي لا أؤذي مشاعرك، و عندما قمت بتسليمها لم يكن بها سوى مائتي جنيه لا غير!

وبقيت في المصحة دون أن أتيقن هل أنا مريض؟ أم قاتل؟

هل هي دعابة ثقيلة من (يسري) حتى في موته؟ أم كانت نهايته علي يدي؟

أين الحقيقي و أين المزيف؟

أين الوهم و أين الواقع؟

هل أنا قاتل أم مجنون؟

قاتل أم مجنون؟

بقلم / محمد حسين